الأستاذ: عامر بن أحمد

المقياس: ليسانيات تطبيقية
المستوى:س2 ليسانس
عنوان المحاضرة: نظريات التَّعلم.
عناصر المحاضرة:

1- مدخل النظري
2- نظرية السلوكية
3- النظرية البيولوجية
4- النظرية اللغوية
5- النظرية المعرفية

1- مدخل نظري:

الثابت أن الانسان منذ أن وُجد في هذا الكون فهو يسعى لتشكيل شبكة من العلاقات الاجتماعية بواسطة نظام معقد من العلاقات الدّالة، وذلك بهدف إدراك حقيقة هذا الوسط، ومحاوله اكتشاف أسراره، وقد لا يتأتى ذلك إلّا من خلال التفاعل معه عن طريق الإدراك الجيد لحركه عناصره التي تشكل بنيته النظامية.

و من هنا فإنّ الإنسان مضطر إلى التعلم لاضطراره إلى المعرفة وإدراك الأشياء على ما هي عليه، وبناء على هذا الوعي بضرورة اكتساب المعرفة المُغيّرة لسلوكات الإنسان فإنّ التعلم هو وسيلته إلى ذلك، ونظرا لهذه الأهمية حاول المفكرون على اختلاف توجهاتهم العلمية معرفة آليات التعلم عند الكائن الحي عامة، والإنسان بصفة خاصة، وقد تجلى ذلك أكثر عند علماء النفس والاجتماع واللغة، وبالرغم من النتائج الإجرائية التي حققوها في المجال التطبيقي فشلوا في وضع ضوابط متجانسة لحده حدّا علميا دقيقا، وبيان ذلك تعدد التعريفات والنظريات من مدرسة إلى أخرى. ولعلّ اهتمام علماء النفس واللسانيات باكتساب اللغة عند الطفل جعلهم يُخصصون كمّا هائلا من الآراء والنظريات لتفسير نظامه اللساني الذي غدا يُشكل ظاهرة معقدة في ميدان الفكر الإنساني المعاصر، وقد تجمعت هذه الآراء والنظريات في أربع محطات بارزة تُكوّن الخلفية النظرية لهذا الإجراء في هذا المجال الخصب من مجالات المعرفة الإنسانية.

2- النظرية السلوكية:

تُعرّف السلوكية (Béhaviorisme) بأنها: نظرية نفسية أثّرت بشكل قوي في السيكولوجية المعاصرة، وقد كان مفهوم السلوك (Béhavior) في عرف هذه النظرية يدور حول مجموعة من الاستجابات الناتجة عن مثيرات المحيط الخارجي طبيعيا كان أو اجتماعيا.

إن السلوك الاجتماعي من وجهة نظر هذه النظرية، لأن السلوك وحده ـ وليس الوعي ـ يمكن أن يخضع للملاحظة الموضوعية.

وعلى هذا الأساس دعت هذه المدرسة (المدرسة السلوكية) إلى ضرورة النظر في موضوع علم النفس الذي لا يستند في دراسته على عناصر موضوعية يمكن ملاحظتها، بل هو يعتمد في ذلك على ما يُسمى بالمثير والاستجابة، علما أنه استقى ذلك من الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) حيث يرى " ثورندايك " "Thornkdike" أن التعلم في هذه النظرية يقوم على إنشاء روابط في الجهاز العصبي بين الأعضاء الداخلية التي يثيرها المنبه، والأعصاب الحركية التي

تنبه العضلات، فتعطي بذلك استجابة الحركة باعتماد قانون المران وقانون الأثر، وفي هذا الصدد يقول زعيم هذه النظرية " واطسن "Watson"« لقد انتهى السلوكيون إلى أنه لا يمكن أن يقتنعوا بالعمل في اللامحسوسات والأشياء الغامضة، وقد صمّموا إمّا أن يتخلوا عن علم النفس أو أن يُحيلو علما طبيعيا.» ع/ مجلة التكوين التربوي "نظريات التعلم "

الثابت أن هذه النظرية تختزل عملية تعلم اللغة عند الإنسان في تلك العادات التي يمتلكها انطلاقا من المفهوم السلوكي للاكتساب وكأنها هنا تساوي بين الإنسان والحيوان، مع أن الإنسان مبدع، وبهذا فهو يختلف عن الحيوان والسلوكات الآلية، لأن اللغة عنده عنصر إبداع غير متناه، ودائما في تطور بشكل مستمر، وأنّ مسألة الحافز المرتبط بالتعزيز لا تنطبق عليه. والظاهر أن هذه النظرية انطلقت من أفكار وهمية أسست لها تجارب "بافلوف" المتكئة على (الإشراط الكلاسيكي)، والتي حاولت تجريد الإنسان من عقله وفكره؛ مخضعة إدراكه للحسيَّة الميكافيلية، مقيدة بذلك حريته وإبداعه وهو الذي يملك ما لا نهاية من الأساليب انطلاقا من أصوات محدودة.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن نظرية التعلم في ظل المنحى السلوكي تقوم أساسا على آلية المثير والاستجابة كما هو شائع ومألوف عند السلوكيين أمثال: واطسون وسكينر وبلومفيلد في مجال الدراسات اللسانية، هذه النزعة ظهرت بوضوح في الثقافة الإنسانية المعاصرة ابتداء من 1924 تاريخ نشر واطسون نظرية سلوكية تنبني أساسا على:

1-حصر مبحث علم النفس التجريبي في دراسة السلوك الملاحظ دون سواه.
2-التركيز على الملاحظة المباشرة للسلوك الظاهر.
3-إقصاء الآراء الأخرى من ميدان التجربة؛ مثل:
أ- الآراء العقلية.
ب - الآراء الاستبطانية.
ج - النظريات المعرفية.

وفي هذا السبيل كان واطسن قد نشر بحثا بعنوان: " الكلام والتفكير" ضمنه العناصر التالية:

1-نفي وجود الجانب العقلي في الحدث الكلامي.
2-اعتبار التفكير بمثابة كلام الفرد نفسه.
3-التفكير هو الكلام ناقص الحركة.
4-تسير السلوك اللفظي في ضوء تكوين العادات.
5-إدخال التعزيز لتدعيم العلاقة بين المثير والاستجابة لإحداث الاشتراط.

انطلاقا من هذه الآراء والتفسيرات السلوكية فإن تعلم اللغة عند الإنسان - والطفل على وجه الخصوص - مرتبط بالمثير الذي يكيّفه حافز البيئة واستجابات يصدرها المتكلم ردا على هذه المثيرات والتي تأخذ شكل السلوك اللفظي القابل للملاحظة والمعاينة المباشرة.

وعليه يمكن القول بأن التفسير السلوكي للحدث اللغوي يرتكز على دعامتين:

1-إمكانية تفسير الحدث اللغوي تسيرا آليا بناء على مفهومي المثير والاستجابة.
2-إمكانية التنبؤ بالكلام بناء على المواقف التي يحدث فيها بمعزل عن العوامل الداخلية.

ومن المواقف التي تسجل في هذا المجال انتقادات تشومسكي لهذه النظرية التي تُغيّب القدرات العقلية التي يمتلكها الطفل حسبه، والتي تجعله يستخدم اللغة على نحو إبداعي، وليس دائما عن طريق تقليد لغة الكبار كما تتوهّم هذه النظرية (النظرية السلوكية).

3- النظرية البيولوجية:

تُعدّ اللغة من وجهة نظر النظرية البيولوجية قدرة فطرية خاصة بالجنس البشري من ناحيته الفيزيولوجية، على اعتبار أن السلوك اللغوي يرتبط بالنواحي التشريحية والفيزيولوجي للإنسان، ومنها العلاقة بين اللغة وتركيب جهازه السمعي والنطقي، إضافة إلى العلاقة بين اللغة والدماغ وإحكام التنفس وضبطه.

إنّ لأعضاء النطق وظائف جسمية وبيولوجية أخرى، فالصوت يبدأ من الصدر انطلاقا من الرئتين ثمّ الحنجرة ثمّ الفم. لذلك فإن ظهور أسنان الطفل مرحلة مهمة في النمو اللغوي، كما أن سرعة اكتساب اللغة ترتبط بنضج الدماغ، والإنسان مزود بِبُنى دماغية مسؤولة عن عمليات سماع الكلام وإدراكه وإرساله وتسمى بمنطقة اللغة.

4- النظرية اللغوية:

تستمد النظرية اللغوية أصولها المعرفية من الفلسفة العقلية التي يتزعمها "ديكارت"، إذ تقول هذه النظرية العقلية في مجال اللسانيات ـ بقيادة العالم اللساني الأمريكي تشومسكي (Chomsky) ـ على إعادة الاعتبار إلى القدرات العقلية التي يمتلكها الإنسان، التي تجعله يختلف عن باقي الكائنات الأخرى، هذه القدرات العقلية تمّ تغييبها لدى النزعة السلوكية.

تحول هذه النظرية تفسير عملية التعلم عند الطفل انطلاقا من مسلمة فحواها أنّ الطفل يولد مهيّأ لاستعمال اللغة، بدليل أنه يمتلك نماذج تركيبية ذهنية بالولادة، أي أن هذه النماذج تُكوّن الكليات اللغوية عند كافة البشر، ومن ثمّ فإن هذه الكليات تشكل القواعد التركيبية الخاصة بلغة الطفل في مجتمع ما. وبالتالي فهي تمثل كفاية أولية أو قدرة قبلية تساعده على تحليل التراكيب التي تسمعها، ثم يعيد صياغة نظامها القواعدي للغته بأن يتلفظ بتراكيب لغوية لم يسمعها من قبل.

ومن جملة العناصر التي تمثل هذه النظرية التشومسكية ما يأتي:

1- هناك حقيقة عقلية تختفي ضمن السلوك حسب تشومسكي.
2- اللغة الإنسانية تنظيم عقلي فريد من نوعه.
3- الطفل مهيأ لإبداع اللغة انطلاقا من النظام القوادي للغته الأم.
4- اللغة مهارة مفتوحة غير مغلقة تتيح لكل من يكتسبها إنتاج جمل جديدة لم يسمعها ولم يوظفها ولم يفهمها.
5- النظرية السلوكية قاصرة لأنها حصرت اللغة في دائرة مغلقة، وعجزت عن تقديم التعليل والتفسير الكافيين للأداء الفعلي للغة.

5- النظرية المعرفية:

تتعارض هذه النظرية التي يتزعمها بياجي (Piaget) مع المرتكزات الفكرية التي قال بها " تشومسكي " بخصوص دور العقل في تعلم اللغة، خاصة القول بوجود تنظيمات موروثة تُساعد الطفل على تعلم اللغة، وبالتالي فهي ـ النظرية المعرفية ـ تتعارض مع النظرية العقلية في عدة وجوه منها:

1- ترفض هذه النظرية قضية اكتساب اللغة عن طريق التقليد والتعزيز المرافق لتلفظات الطفل في مواقف معينة.

2-يرى " بياجي " أنّ اللغة ليست عملية إشتراطية بقدر ما هي وظيفة إبداعية، وليست دائما تقوم على التقليد.
3-يفرق بياجي بين الكفاية اللغوية والأداء الكلامي بحكم أن الأداء ملفوظات منطوقة قد تنشأ عن طريق التقليد دون أن تكون لها علاقة بالحصيلة اللغوية للطفل، بينما الكفاية اللغوية تكتسب عن طريق تنظيمات داخلية ثم يُعاد تنظيمها على أساس تفاعل الطفل مع البيئة الخارجية.
4-حديث بياجي عن تنظيمات داخلية – والتي تحدث عنها تشومكي – لا يعني أنه يتفق معه، لأنه يعني بذلك وجود استعداد فطري عند الطفل لاستخدام اللغة التي ترتبط بمفاهيم بيئته، والتي يكتسبها عن طريق التفاعل مع المجتمع.

وخلاصة الأمر في هذا المجال هو أن النظريات التي اشتغلت وانشغلت بميدان تعلم اللغات تسعى جاهدة ـ وإن اختلفت ـ لإيجاد نظرية تكاملية بهدف تفسير اكتساب اللغة عند الطفل.